الجزء العشرون

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (٥٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

يتطهرون : أى ينزهون أنفسهم ويتباعدون عما نفعله ويزعمون أنه من القاذورات ، قدّرنا : أى قضينا وحكمنا ، الغابرين : أى الباقين فى العذاب .

المعنى الجملى

سبق أن بيّنا أن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين لاحظوا العدّ اللفظى للحروف والكلمات والآيات ، ولم ينظروا إلى ارتباط المعانى بعضها ببعض ، ومن ثم نرى هنا أن الجزء قد انتهى قبل تمام قصة لوط وبدئ الجزء العشرون بتمام هذه القصة ، وقد بين فيها أن النصح لم يُجدهم شيئا وعقدوا العزم على استعمال القوة

فى إخراجه من بين ظهرانيهم ، ولم يكن لهم حجة على المعارضة إلا أن لوطا وقومه لا يريدون أن يشاركوهم فيما يفعلون تباعدا من الأرجاس، وتلك مقالة قالوها على سبيل الاستهزاء بهم ، وقد نسوا أن هناك قوة أشد من قوتهم هى لهم بالمرصاد وأنها تمهلهم ولا تهملهم ، فلما حان حينهم جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون وأهلك الله القوم الظالمين ، ونصر الحق وأزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

الإيضاح

(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم) أى فلم يكن جوابهم للوط إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الذكور إلا قيل بعضهم لبعض : أخرجوا لوطا وأهله من قريتنا ، وقد عدّوا سكناه بينهم منّة ومكرمة عليه إذ قالوا : من قريتكم .

ثم عللوا هذا الإخراج بقولهم استهزاء بهم :

(إنهم أناس يتطهرون) أى إنهم يتحرجون من فعل ما تفعلون ، ومن إقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لجواركم فى بلدكم .

ولما وصلوا إلى هذا الحد من قبح الأفعال والأقوال دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، وإلى هذا أشار بقوله :

(فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أى فأهلكناهم وأنجينا لوطا وأهله إلا امرأته جعلناها بتقديرنا وحكمتنا من الباقين فى العذاب ، لأنها كانت على طريقتهم راضية بقبيح أفعالهم وكانت ترشد قومها إلى ضيفان لوط ليأتوا إليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله صلى الله عليه وسلم ، لا كرامة لها .

ثم بين ما أهلكوا به فقال :

(وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) أى وأمطرنا عليهم مطرا غير ماعهد

من نوعه ، فقد كان حجارة من سجيل ، فبئس ذلك المطر مطر الذين أنذرهم الله عقابه على معصيتهم إياه ، وخوفهم بأسه بارسال الرسول إليهم .

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) .

شرح المفردات

العباد المصطفون : هم الأنبياء عليهم السلام ، الحدائق : البساتين واحدها حديقة ، والبهجة : الحسن والرونق ، يعدلون : من العدول وهو الانحراف ، قرارا : أى مستقرا ، الخلال : واحدها خلل وهو الوسط ، رواسى : أى ثوابت أى جبالا ثوابت ، الحاجز : الفاصل بين الشيئين ، والمضطر : الذى أحوجته الشدة وألجأته .

الضراعة إلى الله ، ويكشف : أى يرفع ، خلفاء : من الخلافة وهى الملك والتسلط ، يهديكم : أى يرشدكم ، بين يدى رحمته : أى أمام المطر .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين وذكر أخبارهم الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه ، وعلى ما خصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم وصدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد وبطلان الشرك والكفر ، وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم فقد تردّى فى مهاوى الردى ، ثم شرح صدره عليه السلام بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررا بذلك قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » ـ أردف هذا بأمره عليه السلام بأن يحمده تعالى على تلك النعم ويسلم على الأنبياء كافة عرفانا لفضلهم وأداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لا ينبغى عبادة شىء سواه من الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) أمر الله رسوله أن يحمده شكرا له على نعمه التى لا تعد ولا تحصى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم لرسالته ، وهم أنبياؤه الكرام ورسله الأخيار .

ومن تلك النعم النجاة والنصر والتأييد لأوليائه ، وحلول الخزى والنكال والقهر بأعدائه .

ونحو الآية قوله : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وفى هذا تعليم حسن ، وأدب جميل ، و بعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، والإصغاء إليه ، و إنزاله من قلوبهم المنزلة التى يبغيها المستمع ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر : هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة ، وفى مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم فى الفتوح والتهانى وغير ذلك من الحوادث التى لها شأن .

ثم شرع يوبخ المشركين ويتهكم بهم وينبههم إلى ضلالهم وجهلهم ، إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الواحد القهار فقال :

(آلله خير أم ما يشركون ؟) أى آلله الذى ذكرت لكم شئونه العظيمة خير أم الذى تشركون به من الأصنام ، وفى ذلك ما لايخفى من تسفيه آرائهم وتقبيح معتقداتهم و إلزامهم الحجة ، إذ من البين أنه ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يوازن بينها و بين ما هو محض الخير ، فهو من وادى ما حكاه سيبويه : تقول العرب : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؟ وكما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب و يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

أتهجوه ولستَ له بكفء فشركما لخيركما الفـــداء

وجاء فى بعض الآثار «إن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » .

ثم انتقل من التوبيخ تعريضا إلى التبكيت تصريحا فقال :

(أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى أعبادة ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التى لاتضر ولا تنفع خير ، أم عبادة من خلق السموات على ارتفاعها وصفائها وجعل فيها كواكب نيرة ونجوما زاهرة ، وأفلاكا دائرة ؛ وخلق الأرض وجعل فيها جبالا وأنهارا وسهولا وأوعارا ، وفيافى وقفارا ، وزروعا وأشجارا ، وحيوانات مختلفة

الأصناف والأشكال والألوان ، وأنزل لكم من السماء مطرا جعله رزقا للعباد فأنبت به بساتين مونقة تسر الناظرين ؟ ولولاه ما نبت الشجر ولا ظهر الثمر .

ونحو الآية قوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقوله : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

ثم زاد فى التوبيخ فنفى الألوهية عما يشركون بعد تبكيتهم على نفى الخيرية عنها فقال :

(أإله مع الله ؟) أى أإله غيره يقرون به ويجعلونه شريكا له فى العبادة ؟ مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين كما قال : « وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ » .

ثم انتقل من تبكيتهم إلى بيان سوء حالهم فقال :

(بل هم قوم يعدلون) أى بل هؤلاء المشركون قوم دأبهم العدول عن طريق الحق والانحراف عن جادّة الاستقامة فى جميع شئونهم ، ومن ثمّ يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح وهو التوحيد ويعكفون على الضلال المبين وهو الإشراك .

وفى معنى الآية قوله : « أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ » وقوله : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، أُولٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ » .

ثم أعاد التوبيخ بوجه آخر فقال :

(أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا) أى أعبادة ماتشركون أيها الناس بربكم معأنه لا يضر ولا ينفع خير، أم عبادة الذى جعل الأرض مستقرا للإنسان والدواب، وجعل فى أوسطها أنهارا تنتفعون بها فى شربكم وسقى أنعامكم ومزارعكم ، وجعل فيها ثوابت الجبال حتى لاتميد بكم ،

وحتى تنتفعوا بما فيها من المعادن المختلفة ، و قد أنزل الماء على شواهقها وجعل بين المياه العذبة والملحة حاجزا يمنعهما من الاختلاط حتى لايفسد هذا بذاك ، والحكمة تقضى ببقاء كل منهما على حاله ، فالعذبة : لسقى الناس والحيوان والنبات والثمار ، والملحة : تكون مصادر للأمطار التى تجرى منها ، وهى وسيلة لإصلاح الهواء .

(أإله مع الله ؟) فى إبداع هذه الكائنات و إيجاد هذه الموجودات .

(بل أكثرهم لايعلمون) أى بل أكثر هؤلاء المشركين لايعلمون قدر عظمة الله وما عليهم من ضرّ فى إشراكهم غيره به ، وما لهم من نفع فى إفرادهم إياه بالألوهة و إخلاصهم العبادة له و براءتهم من كل معبود سواه .

ثم زادهم توبيخا من وجه ثالث فقال :

(أم من يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض) أى أم ما تشركون بالله خير أم الذى يجيب المكروب الذى أحوجه المرض أو الفقر أو النازلة من نوازل الدهر إلى اللَّجَأ والتضرع إليه إذا دعاه وقت اضطراره ، و يرفع عن الإنسان ما يسوءه من فقر أو مرض ، و يجعلكم خلفاء من قبلكم من الأمم فى الأرض فيورثكم إياها بالسكنى والتصرف فيها ؟ .

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أسألك بالله أن تدعو لى فأنا مضطر ، قال : إذًا فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال الشاعر :

و إنى لأدعو اللهَ والأمر ضيّق ... علىّ فما ينفك أن يتفرّجا

ورب أخ سُدَّت عليه وجوهه ... أصاب لها لمَّا دعا الله مخرجا

وعن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعاء المضطر : « اللهم رحمتَك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت » وجاء فى الخبر : « ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن ، دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده » .

وفى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن:
« واتق دعوة المظلوم فليس بينها و بين الله حجاب » .

(أإله مع الله ؟) الذى هذه شئونه وتلك نعمه .

ثم بين أن من طبيعة الإنسان ألا يتذكر نعم الله عليه إلا قليلا ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(قليلا ما تذكرون) أى قليلا ما تتذكرون نعم الله عليكم وأياديه عندكم ، ومن ثم أشركتم به غيره فى العبادة .

ثم زادهم تأنيبا وتهكما من ناحية أخرى فقال :

(أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) أى أم ماتشركون بالله خير ، أم من يرشدكم فى ظلمات البر والبحر إذا أظلمت عليكم السبل فضللتم الطريق ــ بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال : «وَعَلَامَاتٍ. وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ » وقال : « وهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ومن يرسل الرياح أمام الغيث الذى يحيى موات الأرض.

ولما اتضحت الأدلة ولم يبق لأحد فى ذلك عذر ولا علة قال :

(أإله مع الله ؟) فعل هذا ؟

ثم أكد هذا النفى وقرره بقوله :

(تعالى الله عما يشركون) أى تنزه ربنا المنفرد بالألوهية ، ومن له صفات الكمال والجلال ، ومن تخضع له جميع المخلوقات ، وتذل لقهره وجبروته ــ عن شركم الذى تشركونه به وعبادتكم معه ما تعبدون .

ثم أضاف إلى ذلك برهانا آخر لعلهم يرتدعون عن غيهم فقال :

(أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى أم ماتشركون خير أم الذى ينشئ الخلق بادئ بدء ويبتدعه من غير أصل سلف ، ثم يفنيه إذا

شاء ، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أن يفنيه ، وهو الذى يرزقكم من السماء والأرض فينزل من الأولى غيثا و ينبت من الثانية نباتا لأقواتكم وأقوات أنعامكم .

وهم و إن كانوا ينكرون الإعادة والبعث لم يلتفت إلى ذلك الإنكار لظهور أدلته فلم يبق لهم عذر فيه .

و بعد أن وضح الدليل على نفى الشريك بكّتهم وقال :

(أإله مع الله ؟) يفعل هذا حتى يجعل شريكا له .

و بعد أن ذكر البرهان تلو البرهان وأوضح الحق حتى صار كفلق الصبح زاد فى التهكم بهم والإنكار عليهم والتسفيه لعقولهم ، فأمر رسوله أن يطلب منهم البرهان على صدق مايدّعون. فقال :

(قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أى قل لهم أيها الرسول : هاتوا الدليل على وجود ما تزعمون من الشركاء إن كان ما تقولونه حقا وصدقا .

قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ ، وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) .

شرح المفردات

أيان : أى متى ، يبعثون : أى يقومون من القبور للحساب والجزاء ، ادّارك : أى تدارك وتتابع والمراد التتابع فى الاضمحلال والفناء ، فى شك : أى فى حيرة عظيمة ، عمون : واحدهم عم وهو أعمى القلب والبصيرة .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت تفرده بالألوهية ، لاختصاصه بالقدرة التامة والرحمة العامة ـ أعقب هذا بذكر لوازمها وهو اختصاصه بعلم الغيب ، تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر البعث.

(قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) يقول سبحانه آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلم جميع خلقه أنه لايعلم الغيب أحد من أهل السموات والأرض ، بل الله وحده هو الذى يعلم ذلك كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » الآية . وقال : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ» الآية .

والمراد بالغيب الشئون التى تتعلق بأمور الآخرة وأحوالها ، وشئون الدنيا التى لاتقع تحت حِسِّنا وليست فى مقدورنا .

وعن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : من زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم ما يكون فى غد فقد أعظم الفرية على الله ، لأن الله يقول : «قل لايعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » .

ثم ذكر بعض ذلك الغيب فقال :

(وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما يدرى من فى السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة كما قال : « ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً » أى ثقل علمها على أهل السموات والأرض فلا يشعرون بها ، بل تأتيهم فجأة .

ثم أكد جهلهم بهذا اليوم بقوله :

(بل ادّارك علمهم فى الآخرة) أى بل انتهى علمهم وعجزهم عن معرفة وقتها فلم يكن لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسباب العلم ، وليس المراد أنه كان لهم علم بوقتها على الحقيقة فانتفى شيئا فشيئا ، بل المراد أن أسباب العلم ومبادئه من الدلائل العقلية والنقلية ضعفت فى اعتبارهم شيئا فشيئا كلما تأملوا فيها حتى لم يعد لها قيمة وكأن لم تكن .

ثم انتقل من وصفهم بالجهل بميقاتها إلى الحيرة فى الآخرة نفسها ، أتكون أو لاتكون ؟ فقال :

(بل هم فى شك منها) أى بل هم فى حيرة عظيمة من تحققها ووجودها ، أكائنة هى أم غير كائنة ، كمن يحار فى الأمر لايجد عليه دليلا ، فضلا عن تصديق ما سيحدث فيها من شئون أخبرت عنها الكتب السماوية كالثواب والعقاب والنعيم والعذاب والأهوال التى لايدرك كنهها العقل .

ثم ارتقى من وصفهم بالشك فى أمرها إلى وصفهم بالعمى واختلال البصيرة بحيث لايدركون الدلائل التى تدل على أنها كائنة لامحالة فقال :

(بل هم منها عمون) أى بل هم فى عماية وجهل عظيم من أمرها ، وعن كل ما يوصلهم إلى الحق فى شأنها ، والنظر فى دلائلها .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف جهلهم بالآخرة وعماهم عنها ـ أردف ذلك ببيان ذلك وإيضاحه بأنهم ينكرون الإخراج من القبور بعد أن صاروا ترابا ، وأنهم قالوا

تلك مقالة سمعناها من قبل ، وما هى إلا أسطورة من أساطير الأولين وخرافاتهم ؛ ثم أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى صدق هذا بالسير فى الأرض حتى يروا عاقبة المجرمين بسبب تكذيبهم للرسل فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ثم صبَّر سبحانه رسوله على ما يناله من أذى المشركين ، ووعده بالنصر عليهم ، ثم ذكر أنهم مكذبون بالساعة وغيرها من العذاب والجزاء الموعود ، وأنهم يسألون عن ذلك سخرية واستهزاء ، وأجابهم بأن العذاب سينزل بهم قريبا ، ثم ذكر فضله على عباده بأنه لايعجل لهم العذاب مع استحقاقهم إذ هم لايشكرونه على ذلك ، ثم بين أنه تعالى عليم بالسر والنجوى ، وأنه مطلع على ما تكنه القلوب ، وأنه ما من شىء مهما خفى فالله عليم به وهو مثبت عنده فى كتاب مبين .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) أى وقال الكافرون بالله المكذبون لرسله ، أئنا لمخرجون من قبورنا أحياء كهيئتنا من بعد مماتنا و بعد أن بلينا وكنا فيها ترابا ؟ .

وهذا منهم استبعاد لإعادة الأجسام بعد صيرورتها عظاما ورفاتا .

ثم ذكروا شبهتهم على استبعاده فى زعمهم فقال :

(لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) أى إنا ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى تحقق ذلك ولا وقوعه .

ثم أكدوا هذا الاستبعاد بقولهم :

(إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الوعد إلا أسطورة مما سطره الأولون من الأكاذيب فى كتبهم من غير أن يكون لهم بينة على إمكان تحققه ووجوده .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم إلى وجه الصواب مع التهديد والوعيد فقال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) أى قل لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الأنباء من عند ربك : سيروا فى الأرض فانظروا إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين ، كيف هى ؟ ألم يخربها الله ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم وردهم عليهم نصائحهم ، فخلت منهم الديار، وعفت منها الرسوم والآثار ، وكان ذلك عاقبة إجرامهم ، وتلك سنة الله فى كل من سلك سبيلهم فى تكذيب رسله ، وسيفعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا إلى الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسوله .

ثم سلّى رسوله صلى الله عليه وسلم عما يناله من عماهم عن السبيل الذى هدى إليه الدليل فقال :

(ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) أى ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ، ولا يضق صدرك من مكرهم ، فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على من خالفه فى المشارق والمغارب .

ثم أشار إلى أنهم لم يقصروا إنكارهم على الساعة ، بل كان إنكارهم لغيرها من عذاب الله أشد بقوله :

(ويقولون متى هـــذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقول مشركو قريش المكذبون بما أتيتهم به من عند ربك : متى يكون هذا العذاب الذى تعدنا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تدعون .

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال :

(قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) أى عسى أن يلحقكم ويصل إليكم بعض ما تستعجلون حلوله من العذاب ، والمراد به ماحل بهم يوم بدر من النكال والوبال .

قال صاحب الكشاف : عسى ولعل وسوف ، فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجِدِّه ، وما لامجال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ،

وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم وتوقعهم أن عدوهم لا يفوتهم ، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم ، وعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده اهـ.

ثم بين سبحانه السبب فى ترك تعجيل العذاب فقال :

(و إن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون) أى و إن ربك لهو المنعم المتفضل على الناس جميعا بتركه المعاجلة بالعقوبة على المعصية والكفر ، ولكن أكثرهم لا يعرفون حق فضله عليهم . فلا يشكره إلا القليل منهم .

ثم أبان سبحانه أنه مطلع على مافى قلوبهم فقال :

(و إن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) يقال كننت الشىء وأكننته : إذا سترته وأخفيته ، أى إن ربك يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ » وقال « وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » .

وقصارى ذلك — إنه يعلم ما يخفون من عداوة الرسول ومكايدهم له وما يعلنون وهو محصيها عليهم ومجازيهم بذلك .

ثم ذكر أن كل ما يحصل فى الوجود فهو محفوظ فى اللوح المحفوظ فقال :

(وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) أى وما من أمر مكتوم وسر خفى يغيب عن الناظرين فى السماء أو فى الأرض إلا وهو فى أم الكتاب الذى أثبت ربنا فيه كل ما هو كائن من ابتداء الخلق إلى يوم القيامة ، وهو بيّن لمن نظر إليه وقرأ ما فيه مما أثبته ربنا جلت قدرته .

ونحوه : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَافِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » .

إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِن رَبَّكَ يَقْضِي

بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور وأقام على ذلك الدليل يتلوالدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ـ أردف ذلك بالكلام فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأقام الأدلة على صحتها وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ، لاجرم بين الله تعالى إعجازه من وجوه :

(١) إن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا ولم يخالط أحدا من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذاً إلا من وحى إلهى من لدن حكيم خبير .

(٢) إن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم ـ لايوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله .

(٣) إنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر وأنه من الملإ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقُدَر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكما على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا كاختلافهم فى أمر المسيح؛ فمن قائل هو الله ، ومن قائل هو ابن الله ،

ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب فى دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ما هى منزهة عنه ، وقالوا إن النبى المبشر به فى التوراة هو يوشع عليه السلام أو هو نبى آخر يأتى آخر الدهر ، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه .

وأنه لايحكم إلا بالعدل فقوله الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لايستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لايعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعى ، وآذان تسمع دعوة الداعى إلى الحق فتستجيب لها .

الإيضاح

(إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون) أى إن هذا القرآن الذى أنزلته إليك أيها الرسول يقص على بنى إسرائيل الحق فى كثير مما اختلفوا فيه ، وكان عليهم لو أنصفوا أن يتبعوه ، لـكنهم لم يفعلوا وكابروا مع وضوح الحق وظهور دليله كما تفعلون أنتم أيها المشركون .

ثم وصف القرآن بقوله :

(وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) أى وإنه لهاد المؤمنين إلى سبيل الرشاد ، ورحمة لمن صدّق به وعمل بما فيه .

و بعد أن ذكر فضله وشرفه أتبعه دليل عدله فقال :

(إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) أى إن ربك يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بحكمه العادل ، فينتقم من المبطل منهم ويجازى المحسن بما يستحق من الجزاء ، وهو العزيز الذى لايرد حكمه وقضاؤه ، العليم بأفعال العباد وأقوالهم ، فقضاؤه موافق لواسع علمه .

و بعد أن أثبت لنفسه العلم والحكمة والجبروت والقدرة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه وحده فقال :

(فتوكل على الله) أى ففوض إلى الله جميع أمورك وثق به فيها ، فإنه كافيك كل ما أهمك ، وناصرك على أعدائك ، حتى يبلغ الكتاب أجله .

ثم علل هذا بقوله :

(إنك على الحق المبين) أى أنت على الحق المبين وإن خالفك فيه من خالفك ممن كتب عليه الشقاء : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ » .

ثم أيأسه من إيمان قومه وأنه لا أمل فى استجابتهم لدعوته فقال :

(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) أى إنك لا تقدر أن تفهم الحق من طبع الله على قلوبهم فأماتها ، ولا أن تسمعه من أصمهم عن سماعه ولا سيما أنهم مع ذلك معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ، و إنما شبههم بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم ، وشبههم بالصم البكم ليبين أنه لا أمل فى استجابتهم للدعوة ، لأن الأصم الأبكم لا يسمع الداعى بحال .

وظاهر نفى سماع الموتى العموم ، فلا يخص منه إلا ما ورد بدليل كما ثبت فى الصحيح « أنه صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى فى قليب (بئر) بدر فقيل له : يارسول الله إنما تكلم أجسادا لا أرواح لها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » . أخرجه مسلم .

وكما ثبت أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا .

وقصارى ما سلف — إنه تعالى أمره بالتوكل عليه والإعراض عما سواه ، لأنه على الحق المبين ومن سواه على الباطل ، ولأنه تعالى مؤيده وناصره ، ولأنه لا مطمع فى مشايعة المشركين ومعاضدتهم ، لأنهم كالموتى وكالصم البكم ، فلا أمل فى استجابتهم للدعوة ، ولا فى قبولهم للحق .

ثم أكد ما سلف وقطع أطماعه فى إيمانهم على أتم وجه فقال :

(وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) أى أنت أيها الرسول لاتستطيع أن تصرف العمى عن ضلالتهم وتهديدهم إلى الطريق السوى ، والمراد أنك لاتهدى من أعماهم الله عن الهدى والرشاد فجعل على أبصارهم غشاوة تمنعهم عن النظر فيما جئت به نظرا يوصلهم إلى معرفة الحق وسلوك سبيله .

ثم زاد ذلك توكيدا فقال :

(إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى إنما يستجيب لك من هو نافذ البصيرة خاضع لربه متبتل إليه مجيب لدعوة رسله .

والخلاصة — إنك لاتقدر أن تفهم الحق وتسمعه إلا من يصدقون بأدلتنا وحججنا ، فإنهم هم الذين يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه ويعملون به ، إذ هم ينقادون للحق فى كل حين .

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

مَنْ جاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠)

شرح المفردات

وقع : حدث وحصل ، والمراد من القول : ما دل من الآيات على مجىء الساعة، تكلمهم : أى تنبئهم وتخبرهم ، نحشر : أى نجمع ، فوجا : أى جماعة من الرؤساء ، يوزعون : أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة ، ولم تحيطوا بها علما : أى لم تدركوا حقيقة كنهها ، ألم يروا: أى ألم يعلموا، ليسكنوا فيه أى ليستريحوا فيه ويهدءوا ، مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور معاشهم ، الصور : البوق ، داخرين : أى أذلاء صاغرين ، جامدة : أى ثابتة فى أماكنها ، أتقن : أى أحكم ، يقال رجل تقن (بكسر التاء) أى حاذق بالأشياء ، الحسنة : الإيمان وعمل الصالحات ، والسيئة : الإشراك بالله والمعاصى ، كبت : أى ألقيت منكوسة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وأبان بعدئذ إمكان البعث والحشر والنشر ، ثم فصل القول فى إعجاز القرآن ، ونبه بذلك إلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ـ أردف ذلك بذكر مقدمات القيامة وما يحدث من الأهوال حين قيامها، فذكر خروج دابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم وأنه حينئذ ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وأن الجبال تجرى وتمر مر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجعلهم

قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها ويأمنون الفزع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يكبّون فى النار على وجوههم ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

الإيضاح

(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) يخبر سبحانه بأنه حين فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق قرب مجىء الساعة ـ يخرج الله دابة من الأرض تحدث الناس بأنهم كانوا لا يوقنون بآيات الله الدالة على مجىء الساعة ومقدماتها .

والمقصود من هذا التحديث : التشنيع عليهم بهذه المقالة ، وفى التعبير بكلمة (الناس) الإشارة إلى كثرتهم وأنهم جم غفير منهم .

وما جاء فى وصف الدابة والمبالغة فى طولها وعرضها وزمان خروجها ومكانه ـ مما لا يركن إليه ، فإن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بالدليل القاطع عن الرسول المعصوم .

ثم بين سبحانه حال المكذبين حين مجىء الساعة بعد بيان بعض مباديها وأشراطها فقال :

(ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ؟) أى ويوم نجمع من كل أهل قرن جماعة كثيرة ممن كذبوا بآياتنا ودلائلنا ونحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا فى موقف التوبيخ والإهانة ، حتى إذا جاءوا ووقفوا بين يدى الله فى مقام السؤال والجواب ، ومناقشة الحساب ، قال لهم ربهم مؤنبا وموبخا لهم على تكذيبهم أكذبتم بآياتى الناطقة بلقاء يومكم هذا بادى الرأى غير ناظرين فيها نظرا يوصلكم إلى العلم بحقيقتها ، أم ماذا كنتم تعملون فيها من تصديق وتكذيب ؟

(ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لاينطقون) أى وحل بأولئك المكذبين بآيات الله — السخط والغضب بتكذيبهم بها ، فهم لاينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم من العذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ ، وَلاَ يُؤْذَنَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

و بعد أن خوّفهم من أهوال يوم القيامة ذكر الدليل على التوحيد والحشر والنبوة فقال :

(ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار ومخالفتنا بينهم بجعل ذاك سكنا لهم يسكنون فيه ، ويهدءون راحة لأبدانهم من تعب التصرف والتقلب نهارا ، وجعل هذا مضيئا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها ، فيتقلبون فيه لمعايشهم — فيتفكرون فى ذلك ويتدبرون ويعلمون أن مصرف ذلك كذلك ، هو الإله الذى لايعجزه شىء ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء ، و إحياء الأموات بعد الممات .

وفى ذلك أيضا دليل على النبوة ، لأنه كما يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين ففى بعثة الأنبياء منافع عظيمة للناس فى دنياهم ودينهم ، فما المانع إذًا من بعثهم إليهم ؟ بل الحاجة إلى ذلك مُلِمَّة .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فيما ذكر لدلالة على قدرته على البعث بعد الموت ، وعلى توحيده لمن آمن به وصدّق برسله ، فإن من تأمل فى تعاقبهما واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم تحار فى فهمها العقول ، ولا يحيط بعلمها إلا الله ، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل الحالكة المشابهة للموت ، بضياء النهار المضاهى للحياة ، وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة — قضى بأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وجزم بأن الله جعل هذا دليلا على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به حق وأنها من عند الله .

و بعد أن ذكر الحشر الخاص وأقام الدليل عليه — ذكر الحشر العام فقال :

(و يوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) أى واذكر أيها الرسول لهم هول يوم النفخ فى الصور ، إذ يفزع من فى السموات ومن فى الأرض ، لما يعتريهم من الرعب حين البعث والنشور ، بمشاهدة الأهوال الخارقة للعادة فى الأنفس والآفاق ، إلا من ثبت الله قلبه .

ويرى أكثر أهل العلم أن هناك نفختين ، نفخة الفزع المذكورة فى هذه الآية وهى نفخة الصعق المذكورة فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ » لأن كلا الأمرين الفزع والخوف ، والصعق وهو الموت يحصلان بها ، ونفخة البعث المذكورة فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » .

(وكل أتوه داخرين) أى وكل هؤلاء الفزعين المبعوثين ، حين النفخة تحضرون الموقف بين يدى رب العزة للسؤال والجواب ، والمناقشة والحساب ، أذلاء صاغرين ، لايتخلف أحد عن أمره كما قال : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » .

وقال : « ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » وقال : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ولما ذكر دخورهم أتبعه بدخور ما هو أعظم منهم فقال :

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) أى وترى الجبال كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تزول عن أماكنها وتسير حثيثا كمر السحاب ، لأن الأجرام الكبار إذا تحركت فى سمت واحد لاتكاد تبين حركتها .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا » وقوله : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً » وقوله : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » وهذا يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق ، فيبدل الله الأرض غير الأرض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقرّها ليشاهدها أهل المحشر ، وهى و إن

دكت عند النفخة الأولى ، فتسييرها إنما يكون لدى النفخة الثانية كما نطق به قوله : « فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا » وقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » .

ثم علل إمكان ذلك وسرعة حصوله بقوله :

(صنع الله الذى أتقن كل شىء) أى ذلك الصنع العظيم صنع الله الذى أحكم كل شىء وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

ثم علل ما تقدم من النفخ فى الصور والقيام للحساب ومجازاة العباد على أعمالهم بقوله :

(إنه خبير بما تعملون) أى إنه تعالى ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وهو مجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

ثم بين حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال :

(من جاء بالحسنة فله خير منها) أى من آمن بالله وعمل صالحا فله على ذلك جزيل الثواب من عند ربه فى جنات النعيم ، ويؤمنه من الفزع الأكبر يوم القيامة كما جاء فى الآية : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » وقال : « أَفَمَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِى آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ » وقال : « وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » وقد صح تفسير الحسنة هنا بشهادة أن لا إله إلا الله على ما رواه ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن .

(ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) أى ومن أشركوا بالله وعملوا السيئات يكبون على وجوههم فى جهنم ويطرحون فيها ، ونحو الآية قوله : « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ »

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

(هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) أى ويقال لهم : هل هذا إلا جزاء ما كنتم تعملون فى الدنيا مما يسخط ربكم ويغضبه منكم من شرك به ومعصية له .

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

شرح المفردات

البلدة : هى مكة ، أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته ، من المنذرين : أى المخوّفين قومهم من عذاب الله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المبدإ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة ـ أمر رسوله أن يقول لهؤلاء المشركين هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لامزيد عليه ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته ، غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا ، صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهممهم بألطف وجه إلى تدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى تكفى فى إرشادهم وتشفى عللهم وأمراضهم .

الإيضاح

(إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) أى قل لهم أيها الرسول إنما أمرت أن أعبد رب مكة التى حرم على خلقه أن يسفكوا فيها دما حراما أو يظلموا فيها أحدا ، وخصها بالذكر لأن أول بيت للعبادة كان فيها ـ دون الأوثان التى تعبدونها كما قال: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ. الذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ. وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

وفى هـذا تأنيب لهم على ما يفعلون من أنواع الفجور وفظيع المنكرات ، فإنهم قد تركوا عبادة رب مكة ونصبوا الأوثان فيها وعكفوا على عبادتها .

(وله كل شىء) خلقا وملكا وتصرفا دون أن يشركه فى ذلك أحد .

(وأمرت أن أكون من المسلمين) أى وأمرنى ربى أن أسلم وجهى له ، فأكون من الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المخبتين له فى الطاعة .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(وأن أتلو القرآن) آناء الليل وأطراف النهار ، لتنكشف لى أسراره المخزونة فى تضاعيفه ، وأستطلع أدلة الكون المتفرقة فى آيه ، فأعرف حقائق الحياة ، وسر الوجود ، ويفاض على من فيوضاته الإلهية ، وأسراره القدسية ماشاء الله أن يفيض.

وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قام ليلة يصلى فقرأ قوله تعالى : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ » فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر ، ويتجلى له من مقاصدها ما تسمو به نفسه إلى الملإ الأعلى حتى طلع الفجر .

ونحو الآية قوله : « ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ » .

(فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) أى فمن اتبعنى واهتدى بهديى وآمن بى وبما جئت به فقد سلك سبيل الرشاد وأمن نقمة ربه فى الدنيا وعذابه فى الآخرة .

(ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) أى ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بى وبما جئت به من عند الله ، فقل إنما أنا من المنذرين فحسب ، وقد خرجت من عهدة الإنذار ، وليس على من وبال ضلالكم من شىء ، فإن قبلتم وانتهيتم عما يكرهه ربكم من الشرك ، فحظوظ أنفسكم تصيبون ، وإن كذبتم وأعرضتم عما أدعوكم إليه فعلى أنفسكم تجنون ، وقد بلغتكم ما أمرت بإبلاغه إياكم .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » وقوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

ثم أمره بترغيب قومه وترهيبهم فقال :

(وقل الحمد لله) أى وقل الحمد لله على ما أفاض علىّ من نعمائه التى من أجلّها نعمة النبوة المستتبعة لضروب من النعم الدينية والدنيوية ، ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين الساطعة ، ووفقنى لاتباع الحق الذى أنتم عنه عمون .

(سيريكم آياته فتعرفونها) أى سيريكم ربكم آيات عذابه وسخطه فتعرفون بها حقيقة نصحى ويستبين لكم صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد حين لا تجدى المعرفة ، ولا تفيد التبصرة شيئا .

ونحو الآية قوله : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

ثم ذيل هذا بتقرير ما قبله من الوعد والوعيد بقوله :

(وما ربك بغافل عما تعملون) أى وما ربك بغافل عما يعمله هؤلاء المشركون ولكنه مؤخر عذابهم إلى أجل هم بالغوه ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فلا يحزنك تكذيبهم فإنى لهم بالمرصاد ، وأيقن بأنى ناصرك وخاذل عدوك ، ومذيقهم الذل والهوان .

روى أن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مُغْفِلاً شيئا لأغفل ما تُعْفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قلْ علىّ رقيب
ولا تحسبنّ اللهَ يغفُل ساعة ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

والحمد لله وصلاته على النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

obeikandi.com

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة

من حكم وأحكام وقصص

(١) وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين .

(٢) قصص موسى عليه السلام .

(٣) قصص سليمان عليه السلام .

(٤) قصص ثمود وقصص قوم لوط .

(٥) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى .

(٦) إنكار المشركين للبعث والنشور وقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .

(٧) علم الله بما فى الصدور .

(٨) حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل .

(٩) قطع الأطماع فى إيمان المشركين وتشبيههم بالعمى الصم .

(١٠) أشراط الساعة وخروج الدابة من الأرض وحشر فوج من كل أمة وتسيير الجبال .

(١١) الجزاء على العمل خيرا كان أو شرا .

(١٢) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين : إنه إنما أمر بعبادة رب مكة ، لا بعبادة الأصنام والأوثان .

(١٣) أمره بحمد الله والثناء عليه وطلبه تلاوة القرآن .

(١٤) إنه سبحانه سيرى المشركين آياته فيعرفونها حق المعرفة حين لا يفيدهم ذلك شيئا .